

يوميات المدى في القاهرة



لا يمكن لمن يبطأ أرض القاهرة أن يتجاهل نيلها وجسورها الممتدة عليه، لأن للنيل في ذاكرة المدينة أكثر من حكاية، وفي أذهان المصريين صور له أكبر من كونه نهرا، فهو واهب الحياة فيها منذ الأزل، إذ حكيت الأساطير عنه وتنوعت الروايات بشأنه وكيف لا وهو النيل أطول أنهار العالم، الذي يختلف في جريانه عن الأنهار الأخرى، فهو الوحيد بينها الذي يجري من الجنوب باتجاه الشمال، فضلا عن كونه واهب الحياة لصر له الفضل في اعتدال مناخ القاهرة، على الرغم من موقعها في قارة تعد أتون القارات، من حيث ارتفاع درجات الحرارة، فهبوب نسيم النيل يمنح القاهرة درجات حرارة معتدلة في الصيف، حيث تكون أعلى درجات الحرارة فيها هي ٣٢م، أما في الشتاء فتبلغ ١٧م.



مراكب تغازل كورنيش النيل

أقدمها "كوبري" العشاق

٦٧ جسراً على النيل تتعانق بها أحياء القاهرة

□ القاهرة / يوسف المحمداوي

فقط وأهراماتها وإنما جسورها التي تربط جزر النيل بشطريها الشرقي والغربي، والبالغ عددها (٦٧) جسراً.

ما معنى كلمة النيل؟

كنت أتصور حين أشاهد الأفلام المصرية وأسمع دعاءهم (الله ينيك، لا أخفيكم بأني كنت أتصور بأنهم يقصدون إغراقه في النيل)، ولكن المقصود به هو (الله يموتك) أي يجعلك أزرق، وكلمة النيل مأخوذة من الكلمة اليونانية (نيلوس)، والتي معناها وادي النهر، أما الاسم الهيروغليفي للنيل فهو (إتروم) ومعناه النهر العظيم أو الكبير، وعند الأقباط يسمى (بيارو) أو (فيارو) وتعني النهر، يبلغ طول النيل ما بين ابعده من منبعه حتى مصبه (٦٧٠٠) كم، فهو ينبع من نهر كاغيرا في بوروندي ورواندا حتى الدلتا في مصر، علما أن منابع النيل مختلفة، فهناك النيل الأبيض الذي ينبع من بحيرة فكتوري في باوغندا، فيما النيل الأزرق ينبع من بحيرة تانا في إثيوبيا، ورافد صغير آخر هو نهر عطبرة... ويصب في ساحل البحر الأبيض المتوسط، ويضم حوض النيل تسع دول أفريقية تقاسمت المياه في ما بينها وفق اتفاقات عديدة أبرمت بين تلك الدول لتحديد أليات صرف المياه وكذلك إقامة السدود.

ثلاثة سدود فقط

لذا تجد النيل لا يتعرض لانحباس المياه أو قلتها كما يحدث لرافدي العراق بجلة والفرات بعد أن شنت دول الجوار حرب المياه ضدهما وتسعى الى تخفيفهما لعدم وجود اتفاقية بين الحكومات العراقية السابقة واللاحقة مع تلك الدول لضمان حصص العراق المائية، فالحرب المقامة ضد أنهارنا ومسطحاتنا المائية واضحة من خلال بناء تلك الدول للسدود وتغيير مجاري الأنهار ومصبات الروافد التي تصب في حوضي جيلة والفرات داخل العراق، والمصيبة أن حكومات ما بعد التغيير ترمم الاتفاقيات الاقتصادية والتجارية بملبيارات الدولارات مع تركيا وإيران ولم تفكر بإبرام اتفاقية بشأن المياه، تكون متوازنة مع تلك الاتفاقيات، حيث تجد تلك الدولتين في الإيفاء بالتزاماتها المائية اتجاه العراق، المهم لا يهجم مادام الإصغاء أكرم. والنيل على امتداد المسافة الفاصلة ما بين المنبع والمصب لا توجد عليه غير ثلاثة سدود رئيسية: سدي (الروسريس) و(سيسان) في السودان، والسد العالي في مصر، حيث حرمت المعاهدات بين تلك البلدان إقامة سدود إضافية على النهر، لذا يصل معدل تدفق المياه في النيل إلى حوالي ٣٠٠ مليون متر مكعب يوميا.

مصر أم الدنيا

من يرى النيل لا بد أن يسلم إلى البيهية المصرية القائلة (بصر أم الدنيا) لأنك ترى على ضفتيه صروحاً من العمران تتسابق في جمالياتها، فالقاهرة التي أدام العمران فيها الخديوي إسماعيل في منتصف القرن التاسع عشر، كان يشيدها وهو يسك بيديه خريطة بناء باريس، فكان حلمه أن يرى فيها مدينة النور وبالذات الجزء الغربي منها، وما يميز القاهرة ليس نيلها

وبأي نول أنت ناسج برده

للصفتين جديدها لا يخلق

أصل الحضارة في صعيدك ثابت

وبناؤها حسن عليك مخلق..

المخليفة عمر يخاطب النيل

أغلب مدن مصر تقع على نهر النيل، فقلبه تقع ٦٧ مدينة، فضلا عن (٢٣) مدينة تقع على فرعي النيل في رشيد ودمياط، وللنيل عبد يسمى عبد الوفاء، وهذا العبد يحتفل به المصريون منذ ما يقارب السبعة آلاف سنة، حيث كانت تلقى في النيل كما لي خطوة مع التاريخ والوجع الذي يحيلني إلى بلاد ما بين النهرين التي تحولت للأسف إلى بلاد ما بين "النارين"، فما يعيشه العراق من كارثة مائية تحريك من غير قصد إلى حسد القاهرة وأهلها على ما فيها من نعمة المياه، كورنيشات تماها الأشجار، فنادق، عمارات شاهقة، أبراج، سفن عائمة أضحت مطاعم خمسة نجوم، مراكب شرابية، يخوت تماها الزغاريد والحب والأغاني راقصات في ذلك المركب يتمتع السواح برقصهن الشرقي... التقت باتجاه دجلة الخير لأهمس مع النفس.. هل هناك من خير سياتي ولو بعد حين، فلا يخوت تراقص أمواجه ولا قصائد الحصري تحل ضفتيه.. والمركب يسير كنت أسير خيبيتي على ما أنا فيه، ولكن لم يمضي ذلك من مناقشة النيل بقصيدة أحمد شوقي (عروس النيل):

لاقيت أعراساً ولاقت أمتما

كالشيخ ينعم بالفاتة وتزهق

في كل عام درة تلقى بلا

شم من إليك وحررة لا تصدق

وكان هذا الأمر يحدث في القدم، ولكن حين فتح المسلمون مصر، جاء أهلها إلى القائد عمر بن العاص وقلوا له: إن النيل لا يجري إذا لم نلق له عروسه، فصددهم عن ذلك، فقررروا في تلك السنة الجلاء من مصر خشية من الجفاف، ولكن عمر بن العاص كتب للخليفة عمر بن الخطاب (رض) وروى له القصة، فأرسل له الخليفة كتابا جاء فيه " من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجري، وأن كان الواحد القهار هو الذي جريك فنسأله أن يجريك"، وأمر بإلقاء الكتاب في النيل، فجري النيل من لحظتها كما تقول الروايات، وبقي المؤرخون يتناولون تلك الرواية مع ضعفها، ومنهم الكندي والسيوطي وياقوت الحموي.

حقيقة عروس النيل

وظلت حكاية عروس النيل راسخة في الأذهان، وحتى السينما المصرية جسدت تلك الأسطورة، إذ يردد الكثير من المصريين بأن العروس تظهر أحيانا على شاطئ النيل على شكل فتاة عارية تصفها الأسفل عبارة عن سمكة، لأنهم يعتقدون بأن النيل لا يفرق عروسه بل يحولها إلى سمكة، لكن بعد الحملة الفرنسية اكتشفت حقيقة العروس بعد أن كشف شامبيون أسرار اللغة المصرية القديمة، فضلا عن كشف حجر رشيد، ما دفع الباحث الفرنسي (بول لانجيه) إلى التفرع لدراسة حكاية عروس النيل، وتبين له أن المصريين القدماء لم يكونوا يلقون بفتاة إلى النيل، وإنما يلقون بسمكة من نوع الأطم، وهذا النوع من الأسماك يشبه إلى حد ما الإنسان، وتميز أنثى الأطم بوجود شعر كثيف على ظهرها، وتملك أرفادا تشابه أردان المرأة، ما يجعلها تتمايل كراقصة في الماء فقام المصريون القدامى بتزيينها وتلوينها بألوان براقعة، مع تطويق رأسها بالورود والأزهر، ثم يلقونها في النهر، وقبل أعوام تم اكتشاف سمكة من هذا النوع في بحيرة قارون بمحافظة الفيوم.

(ابجيبوتوس) يلقي بنفسه في النهر

ويقال أنه في عهد المماليك يأتون بالفتيات اللواتي يجيدن السباحة وفي يوم الاحتفال يقمن بالسباحة حتى الضفة الأخرى من النيل، وهذا ما يبرهن بأنه إذا كانت هناك عروس للنهر، فهي مصر وخاصة في أيام الفيضانات التي يرف فيها ماءه إلى الأراضي العظيمة لتحتل إلى بساتين ومزارع ومروج، وحتى العقاد في كتابه "عفريية عمر" لم يشر إلى تلك الرواية، بل شكك في وجودها، فيما نكرت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد في كتابها (القاهرة في حياتي)، أن تلك مصر

(ابجيبوتوس) أراد أن يتفادى كارثة حلت في البلاد، فنصحه الكهنة بإلقاء ابنته في النيل، وفعل لكنه لکنه ندم بعد ذلك وانحرق غرقا في النيل، فلا صحة لما جاء في الروايات المذكورة ولم ترد أي دلائل تؤكد أن المصريين القدامى قدموا أمانياتهم للنيل، ومع ذلك تبقى (عروس النيل) من الأساطير الراسخة في أذهان المصريين.

مطعم دوار على برج القاهرة

وأنت في المركب تنزهك الضفاف وهي تتباهى بمبانيها هنا برج القاهرة الذي بني عام ١٩٦١، على شكل زهرة اللوتس في قلب القاهرة على جزيرة الزمالك الكائنة في نهر النيل، حيث يصل ارتفاعه إلى ١٨٧م، ويوجد بقمته مطعم سياحي دوار يمكن للجالس فيه رؤية القاهرة من جميع الاتجاهات وهناك فنادق تلون النيل بمصاييحها والوانها.

الجسور فارشة الجمال وهي تعاشق ما بين الضفاف، وكل جسر له حكاية وطعم خاص.. هاهو جسر قصر النيل أو العشاق أو استراحة الفقراء أو التحرير، كما سمي بعد الثورة المصرية، وكما نكرنا أن في القاهرة فقط هناك (٦٧) جسرا، وهذا أمر طبيعي في مدينة يسكنها ربع سكان مصر وتعد إحدى العواصم المرزحة في السكان، ولو لا تلك الجسور والأنفاق والمتروا، لانفجرت القاهرة بساكنها، فضلا عن كون تلك الجسور أصبحت ملاذا للفقراء حيث يفترشون أرففتها ليلا كأمكان لسياحتهم لأنهم لا يملكون مبالغ السفر للإسكندرية وغيرها من الأماكن السياحية في القاهرة.

"أعطني حريتي أطلق يديا"

انتهدت إلى جهاز التسجيل الذي في مركب عمو محمود حين صعدت أم كلثوم بالأطلال... ولا أدري لماذا خفق القلب باتجاه المنطقة الخضراء حين أنشدت السيدة:

أعطني حريتي أطلق يديا

أنني أعطيت ما استقيت شيا

أه من قيديك آدمي معصمي

لم أبقيه وما أبقى عليا

ما احتفاظي بعمود لم تصنها

والأم والأسر والدنيا لديا

ولكن من يسمعا أو يسمعي من المشغولين في تسابقهم على المناصب والمكاسب!! كما قلنا للجسور أو (الكباري) كما يسميها المصريون أهمية خاصة في الحياة اليومية للمواطنين، وخاصة في الصيف الذي يجذبونون ملاذا لهروبهم من حرارة صيف القاهرة الذي لا يعدل شيئا بالطبع إزاء صيف بغداد البارد جدا، بفضل الحزام الأخضر الذي طوق به المسؤولون العاصمة؛ ومن أقدم تلك الجسور هو جسر قصر النيل الذي بدأ العمل به عام ١٨٦٩، وهو يربط ما بين ميدان التحرير (الإسماعيلية) سابقا وجزيرة الزمالك، وتم افتتاحه عام ١٨٧٢، من قبل الخديوي إسماعيل وهو بطول (٤٠٦) أمتار وعرض (١٠٥) متر، منها ٢.٥ للرصيفين، وقد قامت ببناء الجسر شركة فرنسية، مكلفا الخزينة (١٠٨) آلاف جنيه.

شهيد الحب معلقاً على الجسر

يلاحظ العابر للجسر مشيا على الأقدام الأسود الأربع التي تزين مدخلي الجسر، اثنان في كل طرف، حيث تم تحت تلك الأسود البرونزية في إيطاليا، وفي جانب الزمالك تجد تمثال سعد زغلول وهو يقابل الجسر، فضلا عن أسبجة الجسر الجميلة، ومن الجانب الآخر تمثال لعبد المنعم رياض، وشهد هذا الجسر الكثير من حالات الانتحار، آخرها انتحار شاب مصري في حزيران العام الماضي، حيث قام عمرو محمد موسى بربط عنقه بحبل ثم ربط الحبل بسياج الجسر ليعلق لينهي حياته عليه من أجل حبيبته، وبقيت الجثة معلقة لمدة ساعة متدللة على النهر لحين وصول القوات الأمنية ليحجوا في جيبه رسالة موجهة إلى حبيبته يقول فيها "أنا أستطيع أن اترك الدنيا ولكني لا أستطيع الحياة من دونك"،

مدي بساطك واملتي أكوابي

وانسي العتاب فقد نسيت عتابي

عينك يا بغداد منذ طفولتي

شمسان نائماتن في أهديني



جسر الحديد أقدم

جسور بغداد بناه

الأنكليز حسب مواصفات

جسر (باتريسي) في

لندن حيث يبلغ طوله

(٤٥٠) مترا



المدى على الحنطور



أغلب مدن مصر تقع

على نهر النيل، فعليه

تقع (٦٧) مدينة فضلاً

عن (٢٣) مدينة أخرى

تقع على فرعي رشيد

ودمياط



رقص واصطياف مع النيل